

ابو الحسن علي آخني انءوي

ءوراء الءرء
فئ
ءكوءفن المنافع الاسلامئ وصفا ئه

ملءزم النشر وءءوزفع
المءمع الاسلامئ العلمئ ، نءوءه العلباء
ص . ب - ١١٩ - لءنناؤ (الهنء)

من مطبوعات مجمع الاسلامى العلمى - لكاناؤ (الهند)

رقم - ١٤٨

الطبعة الثانية

١٩٨٩-٥١٤١٠ م

اهتم بالطبع
محمد غياث الدين الندوى



المطبعة الندوية

ندوة العلماء - لكاناؤ (الهند)

هذه المحاضرة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد ، فهذه محاضرة أعدت على اقتراح من الأمانة العامة
لرابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، افتتح بها موسم المحاضرات
لعام ١٤٠١ هـ الذى نظمته الرابطة ، وأقيمت فى ليلة الثلاثاء ١٦
من ذى القعدة الحرام سنة ١٤٠١ هـ (المصادف ١٣ / من سبتمبر
١٩٨١ م) فى قاعة المحاضرات فى مقر الرابطة بمكة المكرمة وقد
حضرها عدد وجيه من العلماء و الاماثة و المثقفين و أعيان
الحجاج .

و المحاضرة تبحث - بأسلوب جديد - عن مكانة الحديث
فى حياة المسلمين و حاجة الأمة إلى السنة ، و مدى الخطر
و الضرر على الكيان الاسلامى ، و غنخامة الخسارة للأمة
الاسلامية ، إذا انقطعت صلة هذه الأمة - لا سمح الله - عن
السنة المطهرة ، أو حيل بينها وبين الحديث النبوى الشريف ،

ومدى دقة المؤامرة و أبعادها التي تهدف إلى إنكار حجية الحديث
أو الاستماتة بقيمته وجدواه ، و التشكيك في صحته و تدوينه .

و قد تجنب المحاضر إعادة ما قيل و كتب في هذا الموضوع
قديماً و حديثاً ، فتمد أشبع ببحثاً و تحقيقاً ، و تكونت فيه مكتبة
غنية ، لعل أحسن ما ألف - أخيراً - في هذا الموضوع ، كتاب
صديقنا الفاضل الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي - رحمه
الله - الذي أسماه « السنة و مكاتبتها في التشريع الاسلامي » .

و قد راعى المؤلف في هذه المحاضرة نفسية الطبقة المثقفة
الثقافة الغربية ، و الطبقة التي لم تتعمق في الدراسات الاسلامية ،
و هي منصرفة عن البحوث العلمية التي تتسم بالدقة و العمق
و الاختصاص العلمي ، و يكثر تساؤلها : ما قيمة الحديث
العملية ؟ و ما غناؤه وجدواه ؟ و ما هو الفراغ الواقع في حياة
المسلم و ما ينقص المجتمع الاسلامي إذا لم يتمسك بالسنة و لم
يعرها الاهتمام ، أو إذا فقد الحديث بتاتاً - لا قدر الله - ؟ .

و قد حاول المحاضر أن يواجه هذه التساؤلات التي قد
يجرى بها قلم الكاتب ، و ينطق بها اللسان ، و قد تجول في
الخاطر و تساور النفوس .

و يرجو بذلك أن يطمئن « العقل الرياضي » الذي لا يذعن

إلا للواقع ، ولا يقيم وزناً إلا لما كانت له قيمة عملية واقعية ،
وقد أثبت أن معرفة سيرة الأنبياء ومن يقتدى بهم في الديانات
و التشريعات ، و أقوالهم و توجيهاتهم ، و البحث عنها والشغف
بها سجية بشرية و حاجة فطرية ، إذا لم يوجد الأصل الصحيح
الأصيل ، ملغى بالزائف الدخيل .

و هنا أشاد بخصيصة هذه الأمة التي حفظ لها حديث
رسول الله ﷺ - و أخباره و أقواله ، و دونت تدويناً
لا نظير له في تاريخ الأمم و الديانات ، و لا يحمل على مجرد
مصادفة .

ثم استعرض التاريخ الاسلامي فبين أنه لولا السنة المحفوظة
و الحديث المأثور ، لما أمكنت الحسبة على المجتمع الاسلامي ،
و لما قام المصلحون و المجددون في كل عصر و مصر ، يميزون
بين السنة و البدعة ، و الحق و الباطل ، و المعروف و المنكر .

فالحديث مدرسة دائمة خالدة ، يتخرج فيها مصلحون
و مجددون ، و قوة دافعة إلى الأمام و إلى الاضطلاع بأعباء
الدعوة و الحسبة ، و كذلك أشار إلى بعض الدوافع الحديثة إلى
إنكار الحديث و التشكيك فيه ، و ما ستؤول إليه هذه الحملة
المعرضة من الخيبة و الاخفاق .

و المحاضرة - على وجازتها و على أنها ليست كتاباً ولا
مبحثاً موسعاً في الموضوع ١ - فيها مادة كافية لاقناع المثقفين
المسلمين الذين رزقوا حسن النية و سلامة الفكر و الانصاف ،
بضرورة السنة و الحديث النبوي ، و قيامهما بمهمة جذرية حاسمة
في حياة هذه الأمة و بقائها كأمة ذات شخصية فريدة و صاحبة
رسالة سماوية خالدة ، و سمات لا تشاركها فيها أمة من الأمم ،
« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو
شاهد » .

أبو الحسن علي الحسيني الندوي

مكة المكرمة

٢٢ - من ذي القعدة ١٤٠١ هـ



(١) المحاضر شاكر افضل الأستاذ نور عالم الأمينى الندوي لقيامه بترجمة بعض القطع
الأردنية التي جادت في كتابات المحاضر سابقاً ، و قد ضمت إلى هذه المحاضرة
وأذيت فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دور الحديث في تكوين المناخ الاسلامى و صيانه

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على أشرف
المرسلين و خاتم النبيين محمد و آله و صحبه أجمعين ، و من تبهم
باحسان ، و دعا بدعوتهم إلى يوم الدين .
العناصر التي كونت المجتمع الجديد ،
و أنشأت الأمة الجديدة :

أما بعد ا فقد كانت بعثة النبي صلى الله عليه و آله وسلم ،
مصدر كل خير ، و منبع كل سعادة ، و بفضل ذلك وحده نشأ
هذا المناخ الدينى الفذ ، و المجتمع الاسلامى القريد ، لكننا لو
استعرضنا المنهج العملى فى هذا الشأن والوسائل التي استخدمت
فى هذا الغرض ، لعلنا أن مفتاح هذا الانقلاب الذى دهشت

منه العقول ، و تحيرت فيه إلا لباب ، و العناصر التي تكون منها
هذا المجتمع الجديد ، و نشأت منها هذه الأمة الجديدة ، إنما هي
الأمور الثلاثة :

١ - القرآن الكريم .

٢ - شخصية النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و حياته
و سيرته و أخلاقه .

٣ - تعليمات النبي عليه الصلاة و السلام و إرشاداته ،
و توجيهاته و أعماله التي يسمى مجموعها بالسنة ، و يحتوى عليه
الحديث النبوى .

ولو تأملنا لعلنا أن هذه العناصر الثلاثة بمجموعها ، قد
تعاملت في تحقيق الأغراض و الفوائد المنشودة من البعثة ، و إيجاد
أمة جديدة ، و الحق أنه لا يمكن أن يوجد بدونها مجتمع مثالي ،
و حياة مثالية ، و هيكل اجتماعي تتجلى فيه العقائد و الأعمال ،
و الأخلاق و السلوك ، و العواطف و الرغبات ، و الميول
و الأذواق ، و الأواصر و العلاقات ، إن الحياة شرط للوجود ،
و من سنة الحياة و الكون أن السراج إنما يستنير من السراج .
و ما نجد في حياة الصحابة الكرام ، و التابعين لهم باحسان ،

بجانب العقائد والأعمال - من الخلق الاسلامي ، والذوق السامي ،
و العواطف الدينية العميقة ، و الكيفيات الایمانیة العجيبة -
لم يكن نتيجة تلاوة الكتاب و حدها ، و إنما كانت - بجانب
ذلك - فيها يد لتلك الحياة المثلى المؤثرة ، الحية الاثيرة ، التي كانوا
يفيشون ظلها ، و يتذوقون جمالها ، و لتلك السيرة والأخلاق
الفاضلة التي كانوا يشاهدونها ، و لتلك المجالس و الصحبة ،
والارشادات و التعلیمات التي ظلوا يستفيدون منها و يسعدون بها ،
على عهد صاحب النبوة عليه الصلاة و السلام .

كيف عاش الصحابة الاسلام ،

ذوقاً و مشاهدة و عملاً ؟ :

و هذه العوامل بمجموعها شكلت ذلك الذوق الاسلامي
الممتاز الذي لا يقتصر على التقيد الرسمي بالقواعد المقررة ،
و الضوابط المرسومة ، و إنما كان مشحوناً بالخوافز و الدوافع
الطبيعية ، و الكيفيات العملية ، و روح العبادة الخالصة ، و يتسم
- بجانب الوقوف عند الحدود و أداء الحقوق - بالمشاعر اللطيفة
و الاحاسيس الرقيقة ، و دقائق مكارم الاخلاق .

(١) نفاً الشجرة و في الشجرة استظل بها ، و تدع الظلال .

إنهم وجدوا القرآن الكريم ، يأمر بإقامة الصلاة ، ووجدوه
يلهج بذكره الذين هم في صلاتهم خاشعون^١ ، ، ولكنهم لم
يتوصلوا إلى كيفية الصحيحة إلا حينما صلوا مع الرسول - صلى
الله عليه وآله وسلم - فعلا ، وشاهدوا هيئة ركوعه وسجوده ،
الأمر الذي عبروا عنه بقولهم : « وهو يصلي و لجوفه أزيز
كأزيز الرجل من البكا^٢ » ، إنهم علموا من القرآن الكريم أن
الصلاة شغل المؤمن المفضل ، ووظيفته الحبيبة الأثيرة ، ولكنهم
لم يتمكنوا من تقدير مدى شغف المؤمن بها وحنينه إليها ،
و رغبته فيها ، ما داموا لم يسمعوا لسان النبوة - على صاحبها
الصلاة والسلام - بقول : « وجعل قرة عيني في الصلاة^٣ »
ويقول بلهجة ملؤها الحب والحنين و الولوع الزائد والهيام
البالغ : « يا بلال أقم الصلاة ، أرحنا بها : ، و كذلك
لم يتمكنوا من إدراك عمق الصلة بين المسجد و قلب المؤمن ، حتى
سمعوا في شأن صالحى الأمة : « و رجل قلبه معلق في

(١) المؤمنون : ٢ .

(٢) رواه أبو داؤد ، و الترمذى .

(٣) رواه التيسانى .

(٤) رواه أبو داؤد .

المساجدا ، ، قد وجدوا القرآن الكريم يرغب في الدعاء ، ويدعوا إلى الابتهاال و التضرع إلى الله ، مرة بعد أخرى ، و وجدوه يبدى لومه و عتابه على الذين يستكبرون عن الدعاء ، و كانوا يعرفون مفهوم التضرع و الابتهاال ، لكنهم لم يكتنوا هذه الحقيقة كلها إلا عند ما شهدوا النبي ﷺ يقول و قد وضع في « بدر » جبهته على الأرض : « اللهم أشد عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد^٢ » ، و شهدوا كيفية القلق و الاضطراب التي لم يسع أبا بكر أن يتحمل رؤيتها ، حتى قال له : « حسبك » لأنهم كانوا يعرفون جيداً أن لب الدعاء و جوهره هو التضرع و الاعتراف بعبوديته ، و عجزه و فقره ، و ضعفه و قلة حيلته ، و كلما كان الدعاء حاملاً لهذه الروح ، زاخراً بهذه الحقيقة ، كان أكثر قيمة و أهمية ، لكنهم لم يعرفوا حقيقة الاعتراف بالعبودية ، و العجز و التضرع ، و الاطراح على عتبة المولى الكريم ، ما لم يسمعه - صلى الله عليه و آله وسلم - يقول في عرفات :

« اللهم إنك تسمع كلامي و ترى مكاني ، و تعلم سرى و علانيتي ، لا يخفى عليك شئ من أمرى ، وأنا البائس الفقير ،

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب المغازى ، المجلد الثانى .

المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبي ، أسألك
 مسألة المسكين ، و أبتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل و أدعوك
 دعاء الخائف الضريب ، و دعاء من خضعت لك رقبتة ، و فاضت
 لك عبرته ، و ذل لك جسمه ، و رغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني
 بدعائك شقياً ، و كن لي رؤفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين و يا
 خير المعطين .

كان خلقه القرآن :

إنهم رأوا القرآن الكريم يقرر أن الدنيا ظل زائل ، و أن
 الآخرة هي دار القرار ، و كانوا يحفظون ، و ما هذه الحياة
 الدنيا إلا هو و لعب ، و إن الدار الآخرة هي الحيوان ،
 إلا أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك و تفسيره بالواقع العملي من
 حياته صلى الله عليه و آله وسلم ، و فهموا - من أسلوب حياته
 و حياة أهل بيته - معنى كون الآخرة هي خيراً و أبقى ، و أنه
 كيف ينبغي أن تكون عيشة المؤثرين الآخرة على العاجلة ،
 و المؤمنين ب- . اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، و حياتهم
 العائلية ، و حينما كانوا يسمعون - بجانب شهودهم هذا المنهج

(١) كذب العمال ، عن ابن عباس رضی الله عنهما .

(٢) المنكوبت - ٦٤ .

للحياة و هذا الموقف من الدنيا ، و هذا الترغيب المجل - أقوال
النبي صلى الله عليه و آله وسلم ، عن مصائب جهنم و شدائدما ،
و عن نعم الجنة و لذائذها ، كان ينشأ فيهم مزيج من الخوف
و الشوق ، و تتمثل الجنة و جهنم أمامهم كل وقت ، و كأنهم
يشاهدونها بأب أعينهم .

و كذلك كانوا يعرفون معنى أمثال كلمات الرحمة ، التواضع ،
و الرفق و الخلق ، و ما إليها من التعليمات و التوجيهات ، فقد
كانوا أبناء اللغة ، و كانوا متعمقين في القرآن ، لكنهم لم يعرفوا
مدى سعة هذه الكلمات ، و طريق تطبيقها في الحياة العملية
و العمل بها ، في واقع الحياة عملاً صحيحاً ، إلا عند ما شهدوا
النبي صلى الله عليه و آله وسلم يعامل الضعفاء و العجزة ،
و الأطفال و النساء ، و اليتامى و الفقراء ، و الشيوخ ، و عامة
رفاقه و أصحابه ، و خدمه و أهل بيته ، و سمعوا أقواله و وصاياه
بهذا الخصوص ، قد عرفوا تعاليم القرآن في صدد أداء حقوق
عامة المسلمين ، لكن هناك أشكالاً و صوراً لهذه الحقيقة قد
لا تخطر من كثير من الناس على بال - مثل عيادة المريض ،
و تشييع الجنائز ، و تسميت العاطس - ولو خطرت لما عرفوا لها
قيمة ، و كذلك جاء في القرآن الكريم تعاليم مؤكدة فيما يتعلق

بالاحسان و حسن السلوك مع أهل الحقوق ، و البر بالوالدين ،
و لكنى أتساءل كم من أساتذة الأخلاق و علماء النفس و التربية
كان لهم أن يهدوا إلى هذه المكانة السامية الفذة - في شأن البر
بالوالدين و الاحسان إلى أهل الحقوق - التي أشار إليها الحديث
النبوي في تنويه وإشادة : « إن من أبر البرصلة الرجل أهل ودأبيه
بعد أن يولى » ، وكم من أذهان كان لها أن تتوصل إلى تلك
المعاني السامية للوفاء و الكرم ، التي تكشف عنها هذه الرواية :
« و ربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءاً ثم يبعثها في صدائق
خديجة » .

هذا قليل جداً من كثير من أمثلة قسم الاجتماع والأخلاق
في الحديث النبوي الشريف ، تدل على مدى اهتمام الحديث بشتى
شعب الحياة ، و التعاليم الجديدة الطريفة فيما يتصل بها ، و بذلك
فهو « حجر الفلاسفة ، الانسانية (إن لم يكن في هذا
التعبير إساءة أدب) ، و نعمة لا تقدر بشئ ، و لا تشتري
بمال .

(١) رواه مسلم في صحيحه .

(٢) متفق عليه .

لا بد من مناخ مناسب
و بيئة متهيأة للأحكام :

إن التجارب الطويلة المتصلة التي مر بها تاريخ الأديان و الأقوام ، تؤكد أن مجرد الأمر القانوني ، و الضابطة الرسمية ليسا بكفيلين بأن يضيفا على عمل أو نشاط ، مسحة من الروح و الكيفيات المطلوبة ، و لا تستطيعان أن تنشأ المناخ الذي لا بد منه ، حتى يجيء العمل مؤثراً مثمراً منتجاً .. فمثلاً : إن مجرد الأمر المجمل بإقامة الصلاة لا ينشئ تلك النفسية المؤتمنة و لا توجد تلك البيئة المناسبة من أجل صيانة روح الصلاة و هيكلها ، و الحفاظ عليها ، و من أجل ظهور آثارها الروحانية و النفسية ، و العقلية و الاجتماعية ، و الخلقية و الدينية ، إن ذلك يستوجب مبادئ و أصولاً ، و إرشادات و تعليمات ، تضيء على العمل روعة و قيمة و تهبه تأثيراً و وقماً ، و لذلك فطلب القرآن الكريم بدوره للصلاة ، الوضوء و الطهارة ، و الشعور و التعقل ، و الخشوع و الخضوع ، و السكوت و القنوت ، و الجماعة .

غير أنه لا يخفى على العاقل الواعي أنه كلما كانت الصلاة مستوفية - بقدر ضروري و على صورة ممكنة التطبيق - للأداب و الفضائل و إعداد الأرضية و التمهيدات الخارجية ، كان ذلك

أقوى على إيجاد جو تستطيع فيه الصلاة أن تجيء بخصائصها وتأثيرها الروحانية والاجتماعية والخلقية ، وإن الدارسين للحديث والسيرة والراغبين فيهما يعلمون أن عمل النبي ﷺ ، وتعليماته وإرشاداته قد زادت في هذه الناحية زيادات قيمة وجيهة عادت بها الصلاة وسيلة أمضى إلى تزكية النفس ، و تربية الأخلاق ، و الانابة إلى الله ، و الانقطاع عن الدنيا إلى الآخرة ، و إلى تعليم الأمة وتربيتها وتوعيتها ، و توحيدها و تنسيقها و جمع شملها .

مثلا : التركيز على نية الوضوء و الاشادة بفضلها و استحضارها ، و فضل الخطوات الماضية إلى المساجد ، والدعاء الذى يدعى به فى الطريق ، و أدب الدخول فى المسجد ، و تحية المسجد ، و السنن الراتبة ، و فضل انتظار الصلاة ، و ثواب الصلاة مع الجماعة ، و ثواب الأذان و الإقامة ، و فضل الامامة و عظمتها ، و مكاتمتها و أحكامها ، و التأكيد على اتباع الامام فى أعمال الصلاة ، و تسوية الصفوف ، و فضل الحلق المنصرفه إلى التعليم و التعلم فى المسجد ، و حلق الذكر و العبادة ، و آداب الخروج من المسجد ، و الدعاء الذى يدعى به عند ذلك ، و ما إلى ذلك ، و من الواضح أن الصلاة تأتى - بعد الأخذ بهذه الآداب و الفضائل و التعليقات - أقوى ذريعة إلى التزكية

و الاصلاح ، و التعليم و التربية ، و الانابة و الانقطاع إلى الله ،
و أضف إلى ذلك كله ما ذكره الحديث - في اهتمام أى اهتمام -
من قصة كيفية صلاة النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و هيامه
بالصلوات النافلة ، و اهتمامه عند تلاوة القرآن الكريم ، و انظر
إلى أى درجة تبلغ صلاة الأمة بهذه المجموعة الكريمة ، من
الآداب و التعليمات ، و أن أى جو نفسى روحانى ينشأ ، و قس
على ذلك الصوم و الزكاة ، و الحج ، و انظر فى آدابها و فضائلها ،
و ما أثر من أقوال النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و وقائع
حياته فى شأنها ، و إلى أى مدى تبقى فعاليتها و قوتها إذا جردت
عن هاتى الآداب و الفضائل و فصلت عن الجو الذى يكون له
الحديث ، و إلى أى مدى تبقى صالحة لاثارة العواطف و إشعال
الشوق ، و إيقاد جمرة الذوق ، و بعث الروح ، و شحن بطارية
القلب و شحذ العقول و الأذهان ، و إعطاء قوة التماسك
و الاستقامة ، و إيجاد مجتمع جديد صالح تسرى فيه روح العبادة
و التقوى ، و الحشية و الانابة ١٤ .

و الواقع أن و قائع حياة النبي ﷺ المباركة ، و إرشاداته
و تعاليمه ، تخلق ذلك الجو الذى تخضر فيه شجرة الدين ، و تورق
و تثمر ، إن الدين ليس مجموعة من الضوابط الخلقية الجاففة ،

إنه لا يبقى حيابدون العواطف والروح والوقائع والامثلة العملية ،
 وخير مجموعة موثوق بها لهذه العواطف والوقائع والامثلة العملية
 هي مجموعة الحديث النبوي الذي أصبحت من خصائص الأمة
 الاسلامية التي لا يشاركها فيها أمة من أمم الانبياء - عليهم الصلاة
 والسلام - و أصحاب ديانة من الديانات المساوية التي لا يزال بقايا
 أتباعها والمنتسبين إليها ، - على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم -
 على وجه الارض .

الديانات القديمة ضيعت أخبار حياة أنبيائها
 وسيرهم وأقوالهم الصحيحة ، وملاّت الفراغ بقصص عظامها :

و هذه الديانات - من يهودية و مسيحية و مجوسية و بوذية
 و برهمية - لم تلبث أن فقدت روحها و قوتها ، و صلاحيتها
 للحياة و البقاء ، فضلا عن النمو والازدهار ، لأنها لم تعد تحتفظ
 بأخبار حياة أنبيائها الموثوق بها ، التي تجدد الايمان و اليقين ،
 وتبعث الروح ، و تنفخ الحياة ، ولم يتيسر لهذه الديانات ذلك
 الجو النفسى الروحانى ، الذى يتقدم فيه أتباعها روحياً و دينياً ،
 و يقاومون به المغريات المادية و غوائل الشيطان و النفس .
 وأخيراً إنهم شعروا بالحاجة إلى ذلك فانها حاجة فطرية ،
 ففلاؤا هذا الفراغ بقصص حياة كبار أتباع الديانات ، و أخبار

« أحبارها ورهبانها » وبما دار في مجالسهم من حديث وحوار ، وما روى عنهم من أحاديث و أخبار ، وأثر عنهم من أقوال وآثار .

ومنا تألفت لنفس هذا الغرض صحف من تلويذا ، عكف عليها اليهود تلاوة و شرحاً و مطالعة و دراسة ، حتى غطت على التواراة نفسها ، ونقل من أقوال علماء اليهود ما يرجحها على صحف العهد القديم ، وقد جاء فيها - بطبيعة الحال - وتأثير العقلية اليهودية الضعيفة ، والمجتمع اليهودى المنحط الخاضع للتأثيرات الأجنبية ، الشيء الكثير من نسج الخيال و ضعف الاعتقاد و ما ينطبق عليه قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره » .

و لجأ المسيحيون بدورهم إلى تأليف كتب و إضافتها إلى صحف العهد الجديد ، ككتاب « أعمال الحوارين » و « رسائل

(١) اسم عام للتنا والجهازة ، يحتوى على الشريعة الشفاهية ، و تقليدات أخرى لليهود ، و نسخ التلود - و أكثرها في ١٢ مجلداً بقطع كامل - تحتوى على أهم التفاسير والحواسي ، وهى كتيرة جداً (دائرة المعارف للبتاني) وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية : « أن التلود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود » ، Jewish Encyclopadia Vol. XI and XII P. 569 - 690 .

(٢) الأنعام - ٩١ .

بولس ، و « رسائل بطرس » ، و « رسائل يوحنا » ، و كتاب
« مشاهدات يوحنا » .

و هام البراهمة و أتباع الديانة الهندية القديمة ، بكتاب
« كيتا » (GEETA) الذى يحتوى على أقوال أحد عظمائهم ،
« سرى كرشن » (SRI KRISHNA) ورامائن (RAMAYANA)
حكايات إلههم راما (RAMA) و ملحمة « مها بهارت » ، و غيرها
من كتب القصص و الملحمات ، و كذلك كان شأن المجوس
الفرس بشرح « أوستا » الذى يسمى « رندا فيست » .

وقد عجزت هذه الكتب كلها عن العودة بهذه الشعوب
المتدنية و الديانات القديمة إلى تعاليم دعائها الأولين ، و تصوير
حياتهم وسلوكهم و اتجاهاتهم الأصلية ، و عن إثارة عاطفة التقليد
لحياتهم و التأسى بأسوتهم ، و الغيرة على دعوتهم و عقيدتهم ،
بل أساءت إليها أكثر مما أحسنت ، و كان السبب الرئيسى فى
اعتلال ذوقها الدينى ، وانحراف فطرتها ، و إغراقها فى التقديس
و التأليه ، و الخضوع الزائد لما كان أمعن فى الخيال ، و أبعدها
عن الحقيقة ، و أشد منافاة للفطرة السليمة ، و كان أثرها بعيداً
و عميقاً و لا يزال ، فى آداب هذه الأمم و عقليتها ، و اجتماعها
و ميولها و رغباتها و حولت هذه الديانات بالتدرج بمجموعة من

البدع و الخرافات و التأويلات الباردة ، و التفسيرات الجديدة المتطرفة ، تلاشت فيها تعاليم هذه الديانات الأصيلة كما تتلاشى قطرة من خل في اليم .

مقارنة سريعة بين سير الأنبياء السابقين
ومؤسسى الديانات ، وبين الحديث والسيرة :

و قد أصبح إفلاس هذه الأمم و الديانات فى سيرة أنبيائها ، و أخبار حياتهم الصحيحة ، حقيقة مقررة لا يختلف فيها اثنان ، و إذا قارن الانسان بين السيرة النبوية و مجموعة السنة و دواوين الحديث النبوى و بين سير الأنبياء السابقين و ما نقل فى حياتهم ، رأى العجب العجاب ، و ما تتحير منه الألباب ، فأكثرها توارت فى ظلمات الجهل و الإهمال ، و الحوادث التاريخية الدامية ، و قد أدت هذه الديانات رسالتها فى فترة زمنية خاصة ، و مشى فى ضوئها الجيل الذى كلف اتباعهم ، ثم لم تبق حاجة إلى الاحتفاظ بها ، و إلى أن تتوارثها الأجيال ، و يكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه و على نبينا الصلاة و السلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه و آله وسلم ، و تنتسب

(١) ليراجع للتفصيل « الرسالة المحمدية ، للعلامة الكبير السيد سليمان الندوى ، المحاضرة

إليه أمة عرف شغفها بالعلم و التأليف ، وإفراطها في حب نبيها ،
و إطرأؤها له إطرأماً بلغ حد التأليه و التقديس ، ولكنها لم
تستطع أن تعرض على العالم إلا نتفاً من أخباره و أقواله التي
لا تكون هيكلًا من حياة بشرية كاملة يقلده الانسان في حياته
الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمع فاضل ، و قد كان الاعتقاد
السائد في العالم المسيحي قبل أيام أن « العهد الجديد » يتضمن
أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح و أخباره ، فانتهى
تحقيق الباحثين و أصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن
الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ،
لا أكثر و لا أقل .

يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات
(CHARLES ANDERSON SCOTT) في مقال له في دائرة
المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، ج / ١٣ / ص / ١٧١٠) :
« ينبغي أن يتنازل الانسان عن محاولة وضع كتاب في سيرة
المسيح بكل صراحة ، فانه لاوجود للادة والمعلومات التي تساعد
على تحقيق هذا الغرض و الأيام التي توجد عنها بعض المعلومات ،
لا يزيد عددها على خمسين (٥٠) يوماً » .

أما الأنبياء الآخرون ، و عظماء الملل و الديانات السابقة ،

فيصح القول بأن أخبارهم و صور حياتهم مطمورة في ركام الماضي ، و هناك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ، و لا يتسنى بدونها الاقتداء و التقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها ، و الاهتمام إليها في هذا العصر المتأخر ، و هذا عين ما تقتضيه الحكمة الالهية و منطق الأشياء ، فالمثل الانسانية لها أعمار طبيعية ، و حيوية محدودة فاذا انتهت لم تكن مصلحة في تناقلها ، أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة ، فبقى على اختلاف الزمان و المكان و استمر و انتشر ، و أورك و أممرا . .

أما الاسلام و حياة صاحب رسالته - صلوات الله و سلامه عليه - فيختلف شأنهما عن شأن الديانات السابقة و أصحاب رسالاتها الاولين ، اختلافاً لا مزيد عليه ، فقد جاء فيها من الوضوح و التفصيل و الدقة مالا يتصور فوقه العقل الانساني ، و لا تؤيدها التجربة الطويلة لتدوين تاريخ العظماء و تسجيل وقائعهم و حوادث حياتهم - بما فيهم الانبياء و أصحاب الرسالات - و نظرة عجيبي في كتب الحديث و الشمائل - فضلا عن كتب السيرة و المغازي - تدل على صدق ما قلنا ، و حسب القارىء أن يستعرض الاحاديث الواردة في حجة الوداع في كتب الصحاح فيعرف كيف تطيب

(١) ما بين الراويين مقتبس من كتاب المحاضر . النبي الخاتم ، ص ١٦ / - ١٧ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، عند إحرامه ، ومن باشر
هذا التطيب ؟ ، و يعرف نوع هذا الطيب ، و طريقة إشعار
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هديه ، و يعرف تفصيله
وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، و كيف سلت
عنها الدم ، و يعرف كيف احتجم ، و يستطيع أن يحدد مكانه
من الجسد الشريف و موضعه من الطريق ، و يستطيع أن يحدد
المنازل بين المدينة و مكة ، و يعد أيامه في السفر ، و ذلك
في زمان لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات و تدوين المذكرات ،
ولا تفوته شاردة ولا نادرة ، حتى يعرف قصة خروج حية في هذا
المشهد الحافل و إفلاتها من القتل ، و يعرف كل من كان رديف
رسول الله عليه وآله وسلم ، في هذه الرحلة ، و يعرف
اسم الحلاق ، و كيف قسم شعره ، و من خصهم بالشق الأيمن ،
و من خصهم بالشق الأيسر ؟ ، هذا فضلا عن خطبه صلى الله
عليه وآله وسلم ، يوم عرفة و في منى ، و وصاياه التي حفظت
و بلغت ، و عملا بقوله ﷺ : « ألا فليبلغ الشاهد الغائب ،

(١) قد استرعب صاحب « نسيم الرياض ، أسماء كل من أردنهم رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم في حياته ، فذكر نحو ثمانية و ثلاثين (٣٨) رديفاً ، و زاد
ابن منده على هذا العدد .

قرب مبلغ أوعى من سامع! . . .

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكتاب المصنفون من الغرب -
والفضل ما شهدت به الاعداء - يقول « جون ديون بورت » في كتابه
« السيرة المحمدية » عنوانه: « اعتذار من محمد والقرآن (APOIOGY
FOR MOHAMMAD AND QURAN) :

« لا ريب أنه لا يوجد في الفصاحين و المشرعين ،
والذين سنوا السنن ، من يعرف الناس حياته و أحواله ، بأكثر
تفصيلا و أشمل بياناً ، مما يعرفون من سيرة محمد (صلى الله عليه
و آله و سلم) و أحواله ٢ » .

وقد ألقى ريبوند باسورت اسمت (BOSWORTH SMITH)
عضو كلية الثلاث في أو كسفورد سنة ١٨٧٤ م محاضرات عن
« محمد و المحمدية » في الجمعية الملكية في بريطانيا العظمى ،
قال فيها :

« أما الاسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن
أحد ، ولا غمّة ييهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه

(١) اقرأ تقديم المحاضر لكتاب « حجة الوداع و عمرات النبي صلى الله عليه و آله
و سلم » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفورى .

(٢) نقلا من « الرسالة المحمدية » للعلامة السيد سليمان الندوى ، ص / ٩٨ .

الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، كالذى يعلمونه من امر لوثر و ملتن ، وإنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون ، أساطير ولا أوهاماً ، ولا مستحيلات ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، و الأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رآد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كل شيء . »

الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين
و واقعهم ، و الحكم عليه في كل عصر :

ثم إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة و اتجاهاتها ، و يعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الاخلاق و الاعمال إلا بالجمع بين القرآن و بين الحديث ، الذى هو يملأ هذا الفراغ الذى وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، و هذه الفجوة لا بد منها في السنن الالهية ، و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ٢ ، ، ، إنك

(١) الرسالة المحمدية ، ص / ١٠٠ .

(٢) آل عمران - ١٤٤ .

ميت و إنهم ميتون^١ ، ، فلولا الحديث الذى يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التى أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامى ، لوقعت هذه الأمة فى إفراط و تفريط ، و اختل الاتزان ، و قد المثل العملى الذى حث الله على الاقتداء به ، بقوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة^٢ ، ، و بقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله^٣ ، ، و الذى يطلبه الانسان ويستمد منه الثقة و القوة فى الحياة ، و يقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور و واقع .

الحديث وسيلة قوية للحسبة على المجتمع الإسلامى
و مدرسة دائمة يتخرج فيها المصلحون و المجددون :

« ثم إن الحديث زاخر بالحياة و القوة و التأثير الذى لم يزل يبعث على الإصلاح و التجديد ، و لم يزل باعثاً على محاربة الفساد و البدع ، و حسبة المجتمع ، و لم يزل يظهر بتأثيره فى كل عصر و بلد ، من رفع راية الإصلاح و التجديد ، و حارب

(١) الزمر - ٣٠ .

(٢) الاحزاب - ٢١ .

(٣) آل عمران - ٣١ .

البدع و الخرافات ، و العادات الجاهلية ، و دعا إلى الدين الخالص
والاسلام الصحيح ، لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الامة
الاساسية ، وكان لا بد من تقييده و تسجيله و حفظه و نشره .

و قد ظلت كتب السنة و الحديث - و لا تزال - مصدراً
من مصادر الاصلاح و التجديد ، و التفكير الاسلامي الصحيح
في الامة الاسلامية ، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني
الصحيح ، و الفكر الاسلامي النقي ، و احتجوا بأحاديثه و استندوا
إليها في دعوتهم ، إلى الدين و الاصلاح ، و في محاربتهم للبدع
و الفتن و الفساد ، و لا يستغنى عن هذا المصدر كل من يريد
إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، و الاسلام الكامل ،
و يريد أن يوجد صلة بينهم و بين الحياة النبوية ، و الاسوة
الكاملة ، و كل من تلجئه الحاجة و تطورات العصر إلى استنباط
الاحكام الجديدة .

شهادة التاريخ لتأثير الحديث

و كتب السنة في الاصلاح و التجديد

و يشهد بهذه الحقيقة تاريخ الاسلام و المسلمين نفسه ،

(١) مقتبس من كتاب المحاضر و رجال الفكر و الدعوة في الاسلام ، ج ١ / د ،

ص / ٩٨ الطبعة الرابعة عام ١٣٩٤ هـ .

فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث و السنة ومعرفتهم بها ، على
كثرة وجود الدعاة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب
الإخلاق ، و الزهد في الدنيا و العمل بالسنة ، و طالت هذه
الفترة ، غوت المجتمع الاسلامى ، الزاخر بأصحاب الاختصاص
العلوم الاسلامية ، المتبحرين فى العلوم الحكيمية و الأدبية ، و فى
عهد غلبة الاسلام و حكم المسلمين ، بدع طريفة و تقاليد عجمية ،
و أعراف دخيلة ، حتى كاد يكون نسخة من مجتمع جاهلى ،
و صدقت النبوة المحمدية و الحديث الصحيح : « لتبعن سنن من
كان قبلكم شبراً بشبر ، و ذراعاً بذراعاً ، و خفت صوت
الإصلاح و خبا مصباح العلم .

و من شاء فليستعرض الموضوع الدينى و واقع حياة المسلمين فى
القران العاشر الهجرى فى الهند ، القرن الذى كادت صلة الأوساط
الدينية و العلمية فى شبه القارة الهندية ، تنقطع عن علم الحديث
الشريف و مصادر السنة الصحيحة ، و كانت تعيش فى عزلة عن
مراكز العلم الدينى ، و تدريس الحديث الشريف ، فى الحجاز
و اليمن ، و مصر و الشام ، و أصبحت مقتصرة على كتب
المذهب و شروحاتها و تدقيقاتها و كتب الأصول و الحكمة ، كيف

(١) رواه الحاكم .

نشئت فيها البدع و عميت المنكرات ، و استحدثت أشكال متنوعة للعبادات و القربات ، و راجت سجدة التحية ، و اتخذت القبور مساجد ، و أوقدت عليها السرج ، و كثرت الاعياد الدينية و الاحتفالات في أيام وفاة الأولياء و الصالحين ، و عمرت المشاهد و أصبحت كعبة القاصدين ، حتى قبض الله لهذه البلاد أئمة مصلحين و علماء ربانيين ، كالامام أحمد بن عبد الواحد السرهندي (م ١٠٣٤هـ) الذي أنكر على شعائر الشرك ، و التقاليد غير الاسلامية الهندية إنكاراً شديداً ، و أنكر وجود البدعة الحسنة ، بالاطلاق و أنكر على وحدة الوجود ، و دعا إلى التمسك بالسنة ، و محاربة البدعة دعوة واضحة مجلجلة ، و قال كلمته التاريخية المأثورة :

« نحن في حاجة إلى كلام محمد العربي صلى الله عليه و آله و سلم ، لسنا في حاجة إلى كلام الشيخ محي الدين ابن عربي ، أو صدر الدين القونوي و الشيخ عبد الرزاق الكاشي ، و إلى « النصوص » لا إلى « الفصوص » ، إن الفتوحات المدنية أغنتنا عن « الفتوحات المكية » . »

(١) و (٢) إشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربي المشهور « فصوص الحكم » و كتابه الكبير « الفتوحات المكية » ، مقتبس من رسالة رقم ٢/١٠٠ ، مجموع رسائل الشيخ المجدد .

و شمر معاصره العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخارى
 الدهلوى (م ١٠٥٢ هـ) عن ساق الجد فى نشر الحديث الشريف ،
 و شرحه و تدريسه ، وتلاهما شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم
 المعروف بولى الله الدهلوى صاحب حجة الله البالغة ، (م ١١٧٦ هـ)
 و أبناؤه النجباء ، و تلاميذه النبغاء ، و قاموا بتعليم كتاب الله
 وستة رسوله ، و شرح العقيدة الاسلامية الحنيفة ، و نادوا بالدين
 الخالص ، و قاموا بتدريس الصحاح الستة و نشرها و تقريرها
 فى المناهج الدراسية ، حتى نفقت سوق السنة وقامت دولة
 الحديث فى هذه الربوع البعيدة عن مركز الاسلام ، حتى أصبحت
 منتجعاً لرواد علم الحديث ، و مهلاً عذباً لطالبي التوسع و التحقيق ،
 و قامت حركات إصلاحية من أقوى حركات الإصلاح و التجديد
 فى العالم الاسلامى كله فى القرن الثالث عشر ، و حسب القارىء
 أن يقرأ تاريخ حركة الامامين الشهيدى السيد أحمد بن عرفان
 الشهيد ، و الشيخ محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦ هـ) الإصلاحية
 الشاملة ، التى جعلت البلاد غير البلاد و الشعب غير الشعب ،

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب المحاضر « إذا هبت ريح الايمان » ، طبع بيروت ،
 و رسالة « الامام الذى لم يوف حقه من الانصاف والاعتراف » ، طبع لكهنؤ
 والقاهرة .

و هبت بها رياح الايمان و الحماس الاسلامى ، و الغيرة على دين الله و على عقيدته الصافية ، قوة جددت ذكريات القرون المشهود لها بالخير و أخبار الأولين ، وقد أحييت هذه الحركة الاصلاحية و الدعوة إلى الدين الخالص كثيراً من السنن التى أميتت ، و قضت على كثير من البدع و المحدثات و العادات الجاهلية التى كانت لها جولة و صولة ، و ذلك كله بفضل ظهور آثار السنة و نشر الحديث ، و إننى واثق بأنه إذا لم يكن وجود لكتب السنة و دواوين الحديث ، و لم يكن سبيل إلى معرفة السنن و التمييز بينها و بين البدع ، لم يكن وجود هؤلاء المصلحين الكبار و الأئمة الاعلام ، الذين يتجمل بهم تاريخ الاسلام ، من عهد شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية (م ٥٧٢٨) إلى عهد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب (م ١٢٠٦ هـ) و معاصره من المصلحين و المرين ، و من نبغ بعده من رجال الدعوة و الاصلاح ، كالعلامة محمد بن على الشوكافى (م ١٢٥٥ هـ) و الامير محمد بن إسماعيل الصنعافى (م ١١٨٢ هـ) و أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسنى (م ١٢٩٣ هـ) ، و السيد عبد الله الغزنوى الامرترى (الشيخ محمد أعظم الكابلى) (م ١٢٩٨ هـ) و الشيخ حسين على الوافى (م ١٣٦٣ هـ) و الشيخ غلام رسول القلعوى

(م ١٢٩١هـ) وغيرهم^١ ، وهي قصة كثير من الاقطار العربية كالعراق و الشام و مصر ، و تونس و الجزائر ، و المغرب الاقصى و البلاد العجمية كآفغانستان و تركستان ، إلا أننا اقتصرنا على الحديث عن الهند ، رغبة في الاختصار ، و لأن المحاضر يعرفها عن كتب لا عن كتب .

الحديث سجل الجو الايماني الأول
و خلده للأجيال القادمة :

و من دلائل كون الاسلام هو الدين الالهي الأخير ، و الرسالة الالهية الخالدة ، الباقية ، أنه لم يمن المسلمون بالعزلة الفكرية ، و الارتجال العملي و السلوكي الذي منيت به أتباع الديانات القديمة ، لعدم وجود الرصيد الديني ، و الركيزة العلمية ، أما المسلمون فقد سجل الحديث النبوي الشريف ، لهم للأبد ، ذلك الجو الايماني و الروحاني الذي عاش فيه و تربي الصحابة الكرام رضی الله عنهم ، و الكيفيات النفسية و الروحية التي لا بست حياتهم ، و واكبتها طول الطريق ، و بذلك فقد أمكن

(١) اقرأ تراجم أعلام الهند في كتاب نزهة الخواطر و بهجة المسامع و التواظر ، للعلامة عبد الحمى الحسنى ، ج / ٧ و ٨ ، طبع دائرة المعارف ، حيدرآباد (الهند) .

للأجيال المتلاحقة القادمة من المسلمين ، أن تصل بقفزة واحدة إلى الجو الذي تنور بوجود شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يتكلم و الصحابة كلهم آذان صاغية ، و قلوب واعية ، كأن على رؤسهم الطير ، تتجلى فيه مواقف العمل بجانب الأحكام ، وبجانب أشكال العمل تتمثل مشاهد العواطف والكيفيات ، يستطيع فيه المرء أن يقدر بدوره أن أى نوع من الأعمال والأخلاق يخلقه الايمان ، و أن أى نوع من الحياة يوجد اليقين فى الآخرة ؟ أنها نافذة يستطيع المرء أن يطل منها على حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم العائلية ، و مشهد الحياة فى بيته ، و أشغاله فى الليالى ، و عيشة أهل بيته ، و يمكنه أن يرى مشهد سجوده بعينه ، و يسمع دعاءه ومناجاته بأذنيه ، و هالك هل يمكن العيون - التى ترى عينيه مستعبرتين و قدميه متورمتين - و الآذان التى تسمع ه أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ، ، أن تمنى بالغفلة والقصر ، إن العيون التى شهدت أن يمضى هلال بعد هلال ، ولا توقد نار فى بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، و رأت بطنه معصوباً بحجرين ، و إن الحصير قد أثر فى ظهره ، و رأت أنه لا يقصد فراشه فى الليل حتى يفرق الذهب و الفضة المتبقيين ، و لا يقره قرار

(١) منفق عليه .

حتى ينتهى من ذلك ، و رأت عند مرض وفاته أن الزيت لاناارة السراج يستقرض من بيت الجار ، وكيف تغيب عنها حقيقة الدنيا ، إن الذى شهد أنه كيف يخدم أهل بيته ، و يحنو على صغاره ، و يتساح مع خدمه ، و يعطف على رفاقه ، و يرحم أصحابه ، و يرفق بأعدائه ، أنى يقصد سواء ليتلقى درس الانسانية الكاملة ، و يتعلم مكارم الأخلاق .

المجتمع الاسلامى بألوانه المختلفة والحياة بحقائقها المتنوعة فى مرآة الحديث :

وإن هذا الجو لا يستفيد فيه المرء من شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدها و إنما سيجد أبواب بيوت الصحابة مفتوحة على مصراعها ، و سيشهد ، دون ما عسر و كلفة ، حياة يدوتهم و أوساطها ، يراهم رهباناً فى الليل ، فرساناً بالنهار ، و يرى مشاغلهم فى الأسواق ، و تفرغهم فى المساجد ، و يرى فيهم التواضع و الايثار ، و الانشغال بالله عن النفس و إغراء النفس الامارة بالسوء ، و طاعتهم الكاملة غالباً ، و سقطاتهم البشرية أحياناً ، هناك تتمثل أمام العين قصة إيثار أبى طلحة الأنصارى ، و قصة تخلف سيدنا كعب بن مالك من غزوة تبوك ، و امتحان حبه للرسول و وفاته للاسلام ، و شهادته على نفسه ، و استقامته فى

هذه المحنة ، ثم توبة الله عليه ، توبة مقرونة بالتوبة على الرسول والخارجين في الغزوة ، تكريماً له ، وتطييباً لقلبه ووقايته من « مركب النقص » ، وكذلك قصة أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها وموقفها الحساس الدقيق في قصة الافك ، وإيمانها وغيرها وعزة نفسها ، ثم نزول برائتها من فوق سبع سموات ، وموقف أبي بكر الصديق في هذا الموقف الحساس الدقيق المثير للغيرة والطبيعة البشرية ، وصدقه واستقامته فيه ، وعودته إلى البر بمن آذاه في أعز شيء إليه ، وبالجملة فإن ذلك جو طبعي تتجلى فيه الحياة بحقائقها المتنوعة ، وألوانها المختلفة والطبيعة البشرية بمظاهرها وخصائصها ، وحواسمها الحديث النبوي الشريف ، وسجلها باقية إلى يوم القيامة .

و بقاء صورة العهد النبوي — بجانب القرآن الكريم — مسجلة ، وبقاء حديث صاحب النبوة ، و صورة جو عهدها ، معجزة من معجزات الاسلام ، ومزية من مزاياه ، التي لا تشاركه فيها ديانة ، إن الدين الذي جاء ليقبى إلى يوم القيامة و يقدم للأجيال القادمة نماذج عملية و يوفر دواعى العمل و نوازعه ، و يغذى العقل و القلب في وقت واحد ، لا يمكنه أن يعيش بدون الجو ، و هذا الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث .

عناية المسلمين بتدوين الحديث
وخدمته ، تقدير العزيز العليم :

إن دراسة تاريخ تدوين الحديث تدل دلالة واضحة على أن ذلك لم يكن صدفة ، أو بدعة أحدثها الناس في العصور الأخيرة ، إن عناية الصحابة كتابة الحديث على العهد النبوي ، و تقييد عدد وجيه من الحديث ، ثم عناية التابعين - منذ أواخر عهد الصحابة بالذات - بتدوين الحديث وترتيبه ، و تقاطر طلاب العلم من خراسان و تركستان ، و هيامهم بجمع الحديث ، و شغفهم باستظهاره ، و حفظه ، و ذاكرتهم القوية المدمثة ، و عزيمتهم و علو همتهم ، ثم وجود المجتهدين في فن أسماء الرجال و فن الرواية ، الذين كانت لهم قدم راسخة و ملكة قوية ، و نظر ثاقب في هذه الناحية ، ثم تفرغهم لذلك ، و انقطاعهم إليه ، و انشغالهم به عن نفوسهم و ملذاتهم ، ثم إقبال الأمة على الحديث إقبالا كلياً ، و شغفها بحديث رسولها شغفاً لا يوجد له نظير في تاريخ الأمم ، و قيامها بحفظه و دراسته و نشره قياماً لا مزيد عليه ، و اشتغالها به من نواح شتى ، إن ذلك كله

(١) راجع للتفصيل كتاب رجال الفكر و الدعوة في الاسلام ، ج ١ / ١ ، عنوان :
و المحدثون و علو همتهم ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، و الكتاب القيم ، السنة ★

دليل واضح على أن الله تعالى كان يريد - كجمع القرآن - صيانة
 صحيفة هذه الحياة ، ، و بفضل ذلك بقي امتداد الحياة المباركة
 - على صاحبها الصلاة و السلام - و ظلت الأمة في كل دور
 من أدوارها تتمتع بذلك التراث الروحاني والطبيعي ، و العلمي
 و الايماني ، الذي سعد به الصحابة رضی الله عنهم مباشرة .
توارث الأمة للذوق الديني و المزاج الاسلامي :

وعلى ذلك فلم يجر التوارث في خصوص العقائد والاحكام ،
 و إنما جرى كذلك في الذوق و المزاج ، و العقلية و النفسية ،
 و بفعل الحديث ظل ذوق الصحابة ينتقل من جيل إلى جيل ،
 و من عهد إلى عهد ، و من طبقة إلى طبقة ، و لم يأت في
 تاريخ الأمة الطويل حين من الدهر ، فقد فيه هذا الذوق كلياً ،
 فقد وجسد في كل عصر رجال يعدون بحق من حاملي ذوق
 الصحابة ، رغبة في العبادة ، و تقوى من الله و خشية منه ،
 و استقامة و عزيمة ، و تواضع و احتساب نفس ، و حنين إلى
 الآخرة و رغبة عن الدنيا و عناية زائدة بالأمر بالمعروف و النهي
 عن المنكر ، و كراهية شديدة للبدع ، و نزعة قوية إلى اتباع

★ ومكانها في التشريع الاسلامي . الدكتور مصطفى السباعي ، عنوان : « تدوين

السنّة » ، ص / ١٢١ - ١٢٥ .

السنة ، الأمر الذي لا يحصل إلا بالانشغال بدراسة الحديث
 والعكوف عليه ، تعليماً و فهماً ، و تعليماً و تدريساً ، و شرحاً
 و تدويناً ، أو بملازمة أولئك الذين اقتبسوا من مشكاة النبوة ،
 و كان لهم نصيب غير منقوص من هذا التراث النبوي ، وظلت
 الأمة تتوارث هذا الذوق عبر عصورها ، منذ القرن الأول إلى
 هذا القرن الرابع عشر الهجري ، رغم طابع المادية و التدهور
 الذي يتسم به هذا العهد ، و لا تزال هذه الثروة القيمة باقية ،
 و الاستفادة منها قائمة .

دافع جديد إلى إنكار الحديث و السنة :

و قد علل العالم الغربي المهتدى محمد أسد (ابو بولد ويس
 سابقاً) التنصل من السنة و نزعة إنكار الحديث - التي ظهرت
 طلائعها في الفترة الأخيرة - في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ،
 و قوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين
 الحضارة الغربية و قيمها و أساليب حياتها و موضاتها ،
 و بين السنة و الجمع بين الحياة التي تقوم على الحب العميق
 و الثقة التامة بصاحب الرسالة الاسلامية ، و مصدر السنة النبوية
 - عليه الصلاة و السلام - و بين تقديس الحضارة الغربية
 و النظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الانساني ، و لعل هذا هو

السبب الذي يحث بعض القادة السياسيين والحكام ، في بعض الشعوب الإسلامية و الأقطار العربية ، على الهجوم على السنة و إنكار الحديث ، يقول محمد أسد :

« وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدينة الغربية في البلاد الإسلامية ، نجد شيئاً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم « متورى المسلمين » من هذه القضية ، ذلك هو قولهم أنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، و أن تتبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد ، ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعد لأن يكبر كل شئ غربي ، و أن يتعد لكل مدينة أجنبية ، لأنها أجنبية ، ولأنها قوية و براءة من الناحية المادية ، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي عليه الصلاة و السلام ، و جعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولا في يومنا هذا ، إن السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدينة الغربية معارضة صريحة ، حتى إن أولئك الذين خلبتهم الثانية (المدينة الغربية) ، لا يحدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة ، على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها ، وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن

الكريم ، لكي تظهر موافقة لروح المدينة الغربية أكثر سهولة . .
التشكيك في حجية الحديث و إنكار السنة
مؤامرة على الاسلام ، سبوه بالحية و الاخفاق :

و الذين يحاولون أن يجرموا الامة هذا المنبع الفيض للحياة
و الهداية و القوة ، بآثاره الشك و الارتباب في حجية الحديث
و قيمته ، و زحزحة ثقافتها به ، إنهم لا يدرون مدى الضرر
و الخسارة التي يلحقونها بها ، إنهم لا يدرون أنهم يكونون بذلك
قد جعلوا أمتهم « محرومة الارث » ، محذوفة الصدر « مقطوعة
الأصل » ، حائرة تائهة ، كما صنع أعداء اليهودية و المسيحية ، أو
حدثان الدهر معهما ، فلو أنهم يصنعون ذلك عن شعور و وعى ،
لما كان لهذه الامة و دينها عدو ألد منهم وأحق ، لأنه لا تعود
إذن هناك وسيلة إلى إنشاء هذا الذوق الديني من جديد ، الذوق
الذي كان يمتاز به الصحابة رضی الله عنهم و الذي لا يمكن أن
يوجد إلا بصحبة النبي صلى الله عليه و آله وسلم مباشرة ، أو
بواسطة الحديث الذي هو صورة حية لذلك العهد ، و مذكرة

(١) « الاسلام على مفترق الطرق » ، ص / ٩٥ - ٩٦ ترجمة الدكتور عمر فروخ ،
طبع دار العلم لللاتين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ م .

ناطقة للحياة النبوية تزخر بكيفيات العهد النبوي ، وتمطر بأريجها
و تقوح برياه .

و قد أحسن الأستاذ محمد أسد في كتابه القيم « الاسلام
على مفترق الطرق » تشخيص هذا العداء للاسلام و مدى خطر
هذه المؤامرة التي تحاول تجريد المجتمع الاسلامي من هذه القوة
التي لا عوض عنها ، وهذه الثروة التي لا مثيل لها ، فيقول :

« لقد كان السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح
الاسلام ، و إنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيد هشك بعدئذ
أن يقوض ذلك البناء ، كأنه بيت من ورقا » ،

و يتحدث عن تأثير إنكار الحديث و ضرورة اتباع السنة ،
فيذكر نتيجة ذلك و يقول :

« و لكن تلك المنزلة الممتازة التي للاسلام — على أنه
نظام خلقي و عملي ، و نظام شخصي و اجتماعي — تنتهي بهذه
الطريقة (يعني بإنكار الحديث و ضرورة اتباع السنة) إلى التهاافت
و الاندثار ٢ » .

(١) « الاسلام على مفترق الطرق » ، ص / ٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص / ٩٥ .

و بالرغم من هذه المحاولات الطائشة للتشكيك في حجية الحديث و الدعوة إلى إنكار السنة التي ظهرت على مستويات مختلفة و بدوافع متنوعة ، عقائدية ، و سياسية ، و شخصية ، و للهروب من مسئولية العمل بالأحكام الشرعية ، و الإلتزام الديني ، في فترات مختلفة^١ ، لم يزل شعار السنة عالياً ، و الدعوة إليها قائمة ، و قد عجنبت بها طينة المجتمع الاسلامي ، و تغفلت في أحشائه ، و جرت منه مجرى الروح و الدم ، حتى أصبح من المستحيل تجريده منها ، و إقامة مجتمع جديد على مجرد الدعوة إلى القرآن الذي اقترن بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم و شرحه له ، و تفصيل ما جاء فيه مجملاد و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم^٢ ، ، ولا يزال الحديث النبوي الشريف معتنى به ، دراسة و تفهماً و تحقيقاً و نشرأ لمصادره التي لم ترضوء الشمس بعد ، و لا تزال الحسبة قائمة على المجتمع الاسلامي ، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، و الرد على البدع و المحدثات على قدم و ساق ، بما في ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى ،

(١) ابراجع للتفصيل الباب الثاني من كتاب « السنة و مكاتها في التشريع الاسلامي » ، في

الشبه الواردة على السنة في مختلف العصور ، ص / ١٤٣ إلى ١٥٣ .

(٢) النحل - ٤٤ .

و الردة العقائدية و الفكرية و الحضارية ، و قبول المدينة الغربية
برمتها و بحذافيرها ، و على علاتها ، و مخالفتها للحياة الاسلامية ،
بفضل الاحتكام إلى السنة و الرجوع إلى الحديث ، تحقيقاً لما
أخبر به النبي صلى الله عليه و آله وسلم : « لا تزال طائفة من
أمتي قوامه على أمر الله لا يضرها من خالفها » ، و في حديث
آخر : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم
الساعة » .

إن شأن المشككين في حجية الحديث و الحاهلين للواء إنكار
السنة ، مع الحديث النبوي و السنة المطهرة ، كما حكاها الشاعر
العربي القديم :

كناطح صخرة يوماً ليونها

فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه الحاكم .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	العناصر التي كونت المجتمع الجديد ، و أنشأت الامة الجديدة
٩	كيف عاش الصحابة الاسلام ، ذوقاً ومشاهدة و عملاً ؟
١٢	كان خلقه القرآن
١٥	لا بد من مناخ مناسب ، و بيئة متهيئة للأحكام الديانات القديمة ضيعت أخبار حياة أنبيائها ، و سيرهم
١٨	و أقوالهم الصحيحة ، و ملأت الفراغ بقصص عظمائها مقارنة سريعة بين سير الأنبياء السابقين ،
٢١	و مؤسسى الديانات ، و بين الحديث و السيرة الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين و واقعهم ،
٢٦	و الحكم عليه في كل عصر الحديث و سيلة قوية للحسبة على المجتمع الاسلامى ،
٢٧	و مدرسة دائمة يتخرج فيها المصلحون و المجددون

- ٣٨ شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة في الإصلاح والتجديد
- ٣٣ الحديث سجل الجوى الايمانى الاول و خله للأجيال القادمة
المجتمع الاسلامى بألوانه المختلفة و الحياة
- ٣٥ بحقائقها المتنوعة فى مرآة الحديث
- ٣٧ عناية المسلمين بتدوين الحديث وخدمته ، تقدير العزيز العالم
- ٣٨ توارث الأمة للذوق الدينى و المزاج الاسلامى
- ٣٩ دافع جديد إلى إنكار الحديث و المنه
- التشكيك فى حجية الحديث و إنكار المنه مؤامرة
- ٤١ على الاسلام ، ستبوه بالخيبة و الاخفاق



و للمؤلف صدر حديثاً :

المُنْزِي

سيرة أمير المؤمنين: سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه - في إطار قبلي وشخصي وجماعي، ومبدي وإداري. وفي ضوء دراسة تاريخية مقارنة محايدة، لما امتاز به من خصائص ومواهب وعبقريات، وتعاون جاد مخلص مع من سبقه في تولي الخلافة، في صالح الإسلام والمسلمين، والسر في ما قدره الله وحققه من توالي الخلفاء الراشدين بعضهم على إثر بعض، مع بيان جهود عظماء ذريته في قيادة المسلمين، ومحاولة تغيير صالح في منهج الحكم والإمارة، وإعادة إلى منهج الخلافة الراشدة، ودورهم الرائع البطولي في بلاد الإسلام وفي قرون مختلفة، في نشر الإسلام، وتزكية النفوس، وإصلاح المجتمع، وقيادة الحركات الجهادية والتحريرية في مختلف الأمكنة والأزمنة، مع نقد النظريات الدخيلة على الإسلام وتفنيد نسبتها إلى أهل البيت، واستغلالها لغايات مذهبية طائفية سياسية.

ملتزم النشر والتوزيع

المجمع الإسلامي العلمي

نوع العلماء، ص. ١١٩ لكناق، الهند

